

الإنزياح النفسي وتداعياته على الإدارة الصفية

د. بلقاسم يخلف-المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة-

مقدمة: بغير اكتساب مهارة إدارة الصف يفقد المعلم جانباً مهماً من جوانب التعلم لأن هناك ترابطاً وثيقاً بين قدرة المعلم على إدارة الصف وما يتمتع به من سمات ومزايا شخصية. كما أن التعلم الحقيقي الفعال لا يمكن أن يتم في صف تسوده الفوضى والاضطراب أو تسيطر عليه أجواء القلق والتوتر، أو تنتشر بين تلاميذه حالة من الاسترخاء والفطور وعدم الاكتراث بما يجري.

ومما لا شك فيه كذلك أن الإدارة الصفية تمثل المقام الأول ضمن اهتمامات التربية الحديثة، إذ أن تحسين عملية التعلم وتطور المتعلمين في مختلف الجوانب الذهنية والنفسية-الاجتماعية مثلاً مرهون بالإدارة الصفية الناجعة. ولما كانت هذه الأخيرة أحد الركائز الأساسية في التعليم، فلقد كان هناك تأكيداً عليها مستمراً من قبل المختصين التربويين.

كما أن إدارة الصف لا تقتصر على تطبيق القوانين وضبط النظام داخل القسم، لكنها تتسع لتشمل النشاطات وكل الممارسات التي يهيئها المعلم بخلق جو اجتماعي تعاوني ديمقراطي داخل الصف، أي كل ما يؤدي إلى تعلم فعال، ثم المحافظة على استمرارية هذا الجو الملائم لحدوث النمو والتعلم.

فالتعلم الفعال يحتاج إلى أجواء منظمة هادئة وطبيعية، لذا كان للجانب النفسي الدور الكبير في ضبط النظام وخلق الجو التفاعلي والنشط لذا كان للمعلم أهم دور بل المؤشر الحقيقي لكل تسيير وإدارة قسم جيد لأن ذلك يحتاج إلى جدية واهتمام وحسن تفاعل بين أطراف الموقف التعليمي. ومن المهم أن يتعرف المعلم إلى كل الأنماط السلوكية، التي من شأنها أن تحقق هذه الأجواء الصحية في الصف، ويتجنب كل ما من شأنه أن يعيق النمو ويخلل التعلم.

إن إعادة النظر في التعامل أثناء العمل مع المتعلمين أو أية ظاهرة سلوكية تعد أحد مقومات التدريس الفعال، مثلها كمثل التغييرات التي نجريها على برامجنا التعليمية. فان تغيير البرامج وطرق التدريس يستدعي تغيير الإدارة الصفية ومنه مراقبة ومراجعة تلك النشاطات والتفاعلات النفسية بين المتعلمين ذاتهم والمعلم

والمتعلم. إن الصورة التي يأخذها كل واحد عن الآخر ذات أثر كبير في تحديد مستوى التفاعل والنشاط الذي سيقوم به كل فرد في الموقف التعليمي. وانطلاقاً من ذلك فإن الإدارة الصفية الناجعة في نظرنا ليست تلك التي تخلو من المشكلات بل تلك التي تعرف كيف تتعامل مع المشكلات الصفية وتجد لها الحلول المناسبة. فالإدارة الصفية لا تتعامل مع فئة معينة من المتعلمين فحسب بل فهي محاولة مستمرة للتصدي لكل عقبات التدريس واستغلال أية فرصة لجعل عملية التعلم -من خلال استغلال المواقف التعليمية ومنح الفرص لأطراف العملية التعليمية/التعليمية- أكثر مردودية، إنها العملية التي هي على عاتق المعلم من أجل خلق جواً مساعداً على التعلم والحفاظ عليه. وذلك عن طريق كذلك تقليص الأسباب والعوامل والظروف المسؤولة عن نشوء النمط والسلوك المعرفي أو الاجتماعي غير المرغوب فيه مثلاً.

ليس من السهل دراسة هذا الموضوع لكنه بعداً له أهميته الكبرى في مهنة التعليم.

١ - تعريف الإدارة الصفية: عبارة الإدارة الصفية حديثة الاستعمال حتى وإن كانت لهذه العبارة في اللغة العربية عدة مرادفات كقولنا "تسيير القسم"، "التحكم في القسم"، "السيطرة على القسم"، "ضبط النظام داخل القسم" أو "انضباط القسم" أو حتى "سياسة القسم" وهذا نابع من الفلسفة التربوية السائدة. في الأساس إدارة القسم تكمن في ارساء والمحافظة أو حتى استرجاع الشروط العامة والمسهلة لعملية التعلم (Archambault, J. et R. Chouinard , 2003, Gaëtan Morin) وبهذا فهي متحولة عبر الزمان بحسب قيم البنية الاجتماعية (Nault, T. et F. Lacourse, 2008) ونظرتنا للطفل أولاً والمتعلم ثانياً والسلوك المثالي الذي نحمله في أذهاننا عن كل متعلم.

التعريف التقليدي يرى الإدارة الصفية على أنها الضبط والتحكم في القسم، أي السيطرة على القسم. ما يضمن النظام والهدوء التام في حجرة الدراسة حتى يتمكن المعلم من تقديم دروسه وأداء مهمة التدريس (التعليم).

أما التعريف الحديث فيمكننا القول أن إدارة القسم تعتبر مجموعة من النشاطات التي من خلالها يحاول المعلم خلق داخل حجرة الدراسة جواً اجتماعياً إيجابياً بينه وبين التلاميذ وبين التلاميذ أنفسهم محاولاً توفير كل الشروط حتى يتعلم التلاميذ.

على كل حال تعاريف إدارة القسم عديدة وكل تعريف له مميزاته ومهما اختلفت فإن إدارة القسم تبقى تلك العملية التي تتفاعل فيها مع التلاميذ حتى يكون تفاعل المتعلم أحسن مع المعرفة. فهي تطوير نوعا من الوساطة في مستوى الجو العام الدراسي ومستوى التعلم ومستوى التنظيم.

II- نبذة تاريخية: الاهتمام بالتعليم ليس حديث العهد بل قديم قدم الفعل التربوي. وكما تنوعت الممارسات التربوية تنوعت كذلك الإدارة الصفية. هذه العلاقات عبر التاريخ من التربية العملية البدائية إلى التقليدية ثم الحديثة عرفت تأرجحا من التركيز على المعلم إلى التركيز على المتعلم خاصة مع ظهور المدرسة في شكلها الحالي وبنائها وتزايد عدد التلاميذ في أقسامها.

أما بعد النهضة الأوروبية والتطورات التي عرفها علم النفس وخاصة علم نفس الطفل وإجبارية التعليم وتطور المدارس ظهرت علاقات تربوية حديثة تقوم على مبدأ الاهتمام بالطفل (المتعلم) ومراعاة خصائصه النفسية والفسيولوجية وقدراته الذهنية والمعرفية جاءت إدارة القسم الحديثة.

وأصبح الاهتمام بإدارة القسم متزايدا، كما أنها أصبحت مشكلة ذات أبعاد متنوعة وأسباب مختلفة في حياة المتعلم حتى أن «البعض يقول أن مشاكل الإدارة الصفية يمكن ردها إلى زبائن تغيروا كثيرا، البعض الآخر يرى فيها إشارات غياب الدافعية للتعلم عند الطلبة، غير أن البعض الآخر يظن وبجدية أنها نتائج التربية التي تلقاها المتعلمون. يمكننا البحث عن أسباب في تركيبة الأفواج، عدد الطلبة،... الأفكار التي يحملها الأستاذ حول الطالب، حول التعليم وحول دوره... لكن مهما يكن المدافعين، فهي واقع يضع أمامنا تحديات جديدة ويتطلب وعيا جديدا.» (Michel Marchand Jacinthe Tardif)

أما في تراثنا العربي الإسلامي وفي الثقافة التعليمية العربية التربوية التقليدية مثلا لإدارة القسم لا نستبعد العقوبة الجسدية (الْقَلْعَة) حتى وإن وُضعت لها ولوسيلة الضرب شروطا: عدد الضربات لا يتجاوز الثلاثة مثلا، وضربا غير مبرح وغير شائن، لقد « شرع الاسلام العقوبة وبين أنواعها المختلفة واعتبرها وسيلة للتربية فأجاز محمد بن سحنون (202- 256 هـ) في "كتاب آداب المعلمين" ضرب الصبيان على منافعهم، كما أجاز أبو الحسن القابسي (324- 403 هـ) فقال معتبرا الضرب بمقدار

خفيف حافظا للتعلم: و"إذا استأهل (الصبي) الضرب فاعلم أن الضرب من واحدة إلى ثلاث...) أبو الحسن علي القاسبي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، دراسة وتحقيق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ط.1، 1986، ص.32» (لكن مازال الضرب أحد الطرق المتبعة في سلوكنا الواعي أو اللاواعي لإدارة القسم.

ما يصطلح عليه حاليا بإدارة القسم عرفت تطورا مختلفا في القرن الماضي من التيار الإنساني (الستينيّات والسبعينيّات) حين يمكن تلخيص الادارة الناجعة في هدف أساسي وهي زيادة الاهتمام بالمتعلم والتأكيد على استقلاليتة ومسؤوليته في التعلم، مروراً بالتيار السلوكي أين نهتم بتغيير السلوك واستعمال التعزيز الايجابي والسلبي وحتى العقوبة، إلى التسعينيّات المتمثل في التيار الاجتماعي-المعرفي (sociocognitivist) أين الكفاءات الاجتماعية والكفاءات المتعلقة بالمادة المدرسية متكاملتين ونبحث بإدارة القسم على خلق علاقات إيجابية بين المتعلم والمتعلم، والمتعلم والراشد. « إذا كان هذا المفهوم قد تطور فيمكننا أن نتصور أنه سيتطور كذلك كلما تغير الواقع التربوي وكلما تطورت الابحاث العلمية المتعلقة به.

«(Thérèse Nault et Jacques Fijalkow, 1999, p. 451-466)

وتعد إدارة القسم أحد المواقف الأساسية في التعليم « أهمية الادارة الصفية، خاصة بالنسبة للأساتذة المبتدئين، تكمن في كونها إن لم تكن متمكنين منها سيكون من الصعب علينا اكتساب كفاءات وقدرات أخرى ضرورية لأداء مهنة التعليم. فالأستاذ المبتدئ في بداية السنة، الذي لم يتمكن من ارساء والمحافظة على بعض الروتينيات حول التنقل في القسم والكلام وتوجيه التلاميذ في محاور الدرس أو إعطاء التلاميذ تعليمات واضحة للقيام بمهمة، سيُضَيِّع الكثير من الوقت والجهد للتلاميذ. هذه العناصر المشتتة للتعليم ستثبط من همة المتعلم.» (idem) كما أن لسوء إدارة القسم آثار سلبية على المعلم ذاته « فمن جهته، لا يفهم المعلم لماذا تلامذته لا يتعلمون. عدم رضاه يمنعه من تخطيط وضعيات تعلم محفزة للتلاميذ... وتكون لديه مشكلات في الواجهات الأخرى من دوره مثل دور المحفز والمسهل والمنظم.

«(idem)

إذا كانت التربية التقليدية منشغلة فقط بتحصيل المعرفة واكتسابها واقتناءها، فالتربية الحديثة أصبحت تركز على مواضيع جديدة مثل: تطور الطفل، نمو الشخصية،

القدرة على التواصل والتعبير والإفصاح والقدرة على البحث والابتكار، فإن هذا يتطلب إدارة صفية ممايزة عن التقليدية.

وبما أن المكان الذي يتحقق فيه فعل التعليم والتعلم هو غالبا القسم، فمن الملاحظ أنه داخل القسم تتأسس علاقات دينامية بين المدرس والتلاميذ تتجسد في العلاقات أو العلاقة التربوية، علما أن هذه العلاقات الانسانية تتميز بطابع التعقيد حيث يعود ذلك إلى كونها تشكل مجموعة علاقات مختلفة في مضامينها ومتباينة من حيث أهدافها، ومتداخلة فيما بينها، لأنها قبل كل شيء علاقات إنسانية ولأن تحققها يستدعي حضور وتفاعل العنصر الإنساني مجسدا في المدرس والتلاميذ. إضافة الى كونها كذلك علاقات تواصل بيداغوجي لأن التعليم هو بالدرجة الأولى، إقامة تواصل مع التلاميذ. وأخيرا وخاصة علاقات سيكولوجية وسيكو- سوسيولوجية، لأن فعل التعليم يتم في غالبية الأحيان في إطار جماعة القسم، فهو ذو طبيعة جماعية. هذا بالإضافة إلى أن انجازاته تكون دائما مرفقة بتبادلات وجدانية مختلفة أين تتفاعل فيه الشخصيات وتبرز أحاسيس المعلم والمتعلم.

III- الاحساس والادارة الصفية: إذا أقرنا أن الإدارة الصفية هي مجموعة من الأنماط السلوكية التي يستخدمها المعلم لكي يوفر بيئة تعليمية مناسبة ويحافظ على استمرارها بما يمكنه من تحقيق الأهداف التعليمية المنشودة فإن للجانب النفسي الدور الأهم في هذه الإدارة، فمن المهم جدا أن يفكر المعلم دائما في كيفية إيجاد وتفهم وخلق العلاقة الجيدة بين مختلف العناصر المكونة للموقف التعليمي. للإحساس دورا في معرفة الموقف بل وحتى الاعتماد عليه لاتخاذ قرار هام، إذ نجد القرآن الكريم يقول ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. ﴾ [آل عمران، 52] أو كقوله ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ... ﴾، [آل عمران، 152] أو ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ. ﴾ [الانباء، 12]. أو كقوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَهْبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رُوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْيَسُ مِنْ رُوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة يوسف، 87].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا. ﴾ [سورة مريم، 98] هي آيات تبرز جيدا دور الاحساس في حياة الفرد. لكن وبكل أسف نجد

أن من المعلمين من يهتم فقط بتحضير الدروس ويفكر في مستوى المتعلمين ومسايرة المحتوى مع قدراتهم ويهتم بمختلف النشاطات التعليمية، غير أن عند إلقاء الدرس وشرحه قد يكون المعلم قد أهمل الجانب النفسي، وبالتالي يفقد المتعلم (المعلم) رغبته في العطاء والتعاطي مع المادة والتفاعل مع المتعلمين (المعلم) علماً أن أي موقف إن لم يتم إدارته بشكل جيد ولم يراع فيه الجانب النفسي سيفقد هويته، ويصبح موقفاً دافعاً للنفور بدل الانجذاب بين أطراف العملية التعليمية مشوشاً وفوضوياً، ويكون بذلك المعلم كالدخيل بين التلاميذ.

لكن الأستاذ في إدارته للقسم قد ينجر لاشعورياً إلى انتقاء بعض التلاميذ الذين يستجيبون بطريقة إيجابية إلى ما ينتظره من التلميذ ويتعامل معهم بطريقة مميزة مما يجعل هذا الأستاذ نخبوي وبالتالي سيكرس الإخفاق في التعليم ومنه نوعاً من العنف. هذا الإخفاق سوف تستجيب له الأغلبية الساحقة من المتعلمين بالعنف.

رغم هذا فمن أجل نجاح مدرسي على المعلم أن يحس مثلاً بالقلق والتوتر الذي يعيشه المتعلم عند أي إخفاق قد يلحق بالمتعلم: الإخفاق في صياغة السؤال، الإخفاق في الإجابة على سؤال المعلم وفهم الدرس، الإخفاق في ربط علاقة مع الزملاء ومنه الشعور لدى المتعلم بالاستبعاد المدرسي -الاستبعاد الاجتماعي- وما ينجر عن ذلك من كراهية المادة والأستاذ والمدرسة ...

من بين العناصر والأدوات المساعدة بل والتي تزيح توتر المتعلم هي هذه التفاعلات البينية (inter-actions) بين المتعلم والأستاذ وبين المتعلمين ذاتهم وتفاعل المتعلم مع المادة. هذا التفاعل الإيجابي لن يكون إلا بإدارة صفية ناجعة مستغلة الإحساس الذي طوره الأستاذ في تعامله مع تلامذته. هذا الإحساس الذي يبلور ذات متعلمة وذات عاملة.

يصعب علينا أن ندير صفاً دراسياً لا تسوده علاقات إنسانية سوية ومناخ نفسي واجتماعي يتسم بالمودة والاحترام. في الواقع المناخ العاطفي داخل القسم شيء يصعب وصفه ولكن يمكن الإحساس به بمجرد دخولنا حجرة الدراسة.

أ- الدور النفسي للمعلم: أكد المعلم أحد العناصر الأساسية والمهمة في العملية التعليمية والذي ركزت عليه البيداغوجيا تركيزاً كبيراً وكانت للخصائص المعرفية والنفسية والأدائية والانفعالية -العاطفية- التي يتميز بها دوراً بارزاً في فعالية كل

معلم باعتبار أن هذه العناصر تشكل أحد المدخلات التربوية المهمة التي تؤثر بشكل أو بآخر في الناتج التحصيلي للمتعلمين وعلى مستوياتهم المختلفة كذلك من معرفية وأدائية إلى نفسية، انفعالية - عاطفية. فالمعلم الناجح هو ذلك المعلم القادر على أداء دوره بكل فعالية واقتدار، ذلك الذي يكرس جهوده في سبيل إيجاد فرص تعليمية أكثر ملاءمة لمتعلميه من خلال أنشطته وفعالياته داخل الصف الدراسي.

فكل اتصال لا يخلو من تأثيرات وتفاعلات نفسية نظرا لذلك الاحتكاك النفسي المميز للعلاقات الانسانية. الحصة التعليمية ليست مثلا مجرد سرد للمعلومات وتعليم المتعلم مهارات ما، بل موقف انساني تتفاعل فيه شخصيتين بكل ما تحمل كل واحدة من مكونات خاصة.

كما تتضمن الادارة الصفية الاتصال وتبادل المعلومات بين المتعلمين ذاتهم وبين المعلم والمتعلم، فالاتصال عملية حيوية لأنه مهم للقيادة الفعالة وعمليات التخطيط والتنسيق والتدريب وحتى إدارة الصراعات المختلفة التي تنشأ بين المتعلمين. كما أنه يساعد على اتخاذ القرارات والعمليات التنظيمية المخلفة. لذلك يعد الاتصال الفعال من الأدوار المهمة للقائد والذي من خلاله يستطيع أن يحقق العديد من أهداف المدرسة التربوية والتعليمية، حتى وإن كان ذلك يستوجب بيئة مناسبة لتحقيق الاتصال الناجح مع جميع الأطراف.

فالعامل التربوي والتعليمي عمل متشعب ومعقد في الوقت نفسه لكون العمل الذي يقوم به المعلم والجهد الذي يبذله موجه أساسا إلى الإنسان ذاته، ما يزيد الأمور تعقيدا هي أن حامل هذه الرسالة هو إنسان كذلك له خلفيات وله شخصية وله إحساس وعواطف، كان بالأمس مستقبلا لهذه الرسالة وبعد ذلك أصبح مرسلا لها. وهذا ما يجعل إدارة القسم هي إدارة للنفس وليس إدارة آلة كما هو الشأن في باقي القطاعات الأخرى. فدور المعلم في العمل التربوي حتى وإن بدا للجميع محددا وواضحا فإنه سيكون بحسب الموقف، ولا يمكننا وضع خطة مسبقة نحدد فيها ما يجب على المدرس القيام به داخل الفصل. بل عليه التسلح بكل الوسائل، وعلينا أن ننظر إليه "كعالم نفس" يدير هذه الشخصيات بما فيها شخصيته بكل مكوناتها. حتى اصبحنا كلما نزيد تمعنا في دور المدرس نجده فعلا دورا صعبا جدا.

نحن لا نبخس البحث في العناصر الأخرى المكونة للموقف التعليمي كالتنظيم الجيد لعناصر الدرس مثلاً ومواءمة طريقة التدريس للموضوع والتلميذ، بل على العكس نشمن ذلك وندعو إلى تعميق وإغناء كل عنصر، وبالموازاة لا نرى سبباً لإهمال الجانب النفسي في إدارة القسم. أما نواة هذا الاهتمام فهي الذات العاملة (المعلم) والذات المتعلمة (المتعلم) في علاقتهما وتفاعلهما النفسي والاجتماعي.

IV- الذات العاملة والذات المتعلمة: عندما نتكلم عن إدارة القسم ونعني بذلك مختلف الطرق التي نسيّر بها قسمنا كأستاذة فهناك عامل جد مهم سيؤثر بصورة كبيرة على التعامل مع المتعلمين وهو نموذج الأستاذ (le style d'enseignant)، إذ لكل شخصية شخصيتها. لهذا ففي ميدان التدريس فمن المهم أن نعرف كيف ننمو ونطور شخصيتنا المهنية على الخصوص ومنه طريقة تسييرنا للقسم. وفي خضم تعدد المناهج وطرق التدريس وتنوعها في سبيل تحقيق ذات المتعلم والمعلم اتخذت المؤسسات التعليمية لنفسها أسلوباً في التكوين المناسب حتى تستطيع من خلاله أن تحقق التطور المنشود، ومن هنا كان التفاعل الصفي أحد الركائز الأساسية للتعليم المعاصر. أما إذا أقررنا أن القدرة على إدارة القسم تكتسب بالتجربة أي بالمحاولة والخطأ والتقليد أو أنها موهبة فهذا سوف لن يعطيها المكانة الكافية في التكوين.

لكن كما هو معلوم فالفعل التعليمي ليس فقط موقفاً تعليمياً- تَعَلُّمياً أين نقدم فيه معلومات أو نجعل المتعلم ينمي معارفه أو مجرد تطبيقات لنظريات التعلم وتتابعها بل موقف تحتك وتتلامس فيه شخصيات وتتفاعل وحتى تتصادم. «شخص المعلم من المحتمل جداً أن يكون العامل الأول الذي يؤثر على اكتساب وتطوير كفاءة إدارة القسم. بما أن هذه الكفاءة مكونة من معارف تتجدد في مواقف مختلفة، فهذه المعارف المختلفة تأخذ إذاً لون خصوصيات شخص الأستاذ الذي يُقترح عليه هذه المعارف. بهذا المعنى يصبح الأستاذ مصفاة استراتيجيات ومهارات إدارة القسم. جان جوريس (Jean Jaurès) يقول، نتذكر ذلك، أننا لا نُدرّس ما نعرفه لكن ما نحن عليه.» (Thérèse Nault et Jacques Fijalkow , 1999, p. 451-466)

كما أن نجاح العملية التعليمية-التعلمية يتوقف على قدرة الأستاذ على تكوين وبناء علاقة ثقة مع المتعلمين آخذاً بعين الاعتبار فضاهم الوجداني، لذلك فالاهتمام

بالبعد الوجداني في إدارة القسم سيساعد كل متعلم على الاستقلالية والاستدلال المنطقي وتكوين وتحديد الشخصية المهنية التي يتوقف عليها كل نمو مهني. «إن عملية التدريس هي عملية تواصلية في المقام الأول، وهي عملية تفاعل دائم متبادل ومثمر بين المعلم والطلاب من جهة. وبين الطلاب أنفسهم من جهة أخرى. ويحتل أمر التفاعل الإيجابي بين المعلم وطلابه أمرا أساسيا في مهارات التدريس. إذ تؤكد الدراسات والأبحاث التربوية، ضرورة وجود علاقة إنسانية إيجابية بينهما لما تنطوي عليه هذه العلاقة من نتائج إيجابية تساهم في خلق جو الود والاحترام والتفاعل النشط بين المعلم والطلاب. (جمال سليمان، 2008- 2009 م، 44).»

لأن النجاح المدرسي يتم كذلك بالمشاركة الفعلية والوجدانية للتلميذ والمعلم. مورينو (Jacob-Levi Moreno)(1889-1971) يرى أن الأشخاص يرتبطون فيما بينهم بثلاث علاقات ممكنة: اللطافة (la sympathie) النفور (l'antipathie)، اللامبالاة (l'indifférence) وما دام القسم جماعة فإنه لا يخلو من هذه الروابط الاجتماع-وجدانية (liens socio-affectifs) وروابطه متوقفة على نوعية العلاقة السائدة وإدارة القسم المناسبة. فالتطور الذهني ينتج عن طريق ديناميكية بين المادة العلمية والمساعدة التي يقدمها الآخر وقدرة الفرد على الاستفادة مما يقدم له. فالمواجهات بين الافراد هي مصدر كل تطور. فالمعرفة تنتج من الاحتكاك والتبادل.

العاطفي يبدو ذلك المجال المجهول علما أن العاطفة للطفل وللمراهق هي تلك الأداة الضرورية ليس فقط لتكوين الهوية والذات بل للقدرة الذهنية.

على كل حال « ممارسات مهنة التدريس معقدة خاصة أنها تستدعي المبادئ العلمية ذات الصلة بالمحتوى العلمي، المبادئ الديداكتيكية، البيداغوجية والعلائقية (relationnels) (Patrice PELPEL, 1996, P.105) »

هذه العلاقة بين مختلف أطراف العملية التعليمية - التعليمية ونخص بالاهتمام علاقة المتعلم بالمعلم أي تلك ردود الأفعال النفسية التي تخلق بين المعلم والمتعلم حتى وإن كان هناك عدة عناصر لها الدور الفعال والمحدد لهذا التفاعل منها التحضير الجيد للدرس مثلا وتمكن المعلم من المادة وتنظيم القسم وغيرها. كل هذه العناصر يمكن جمعها تحت الجو العام المساعد على الدراسة وكل ذلك يدور حول محور أساسي وهو شخصية المعلم.

أكيد من الصعب أن نعرف كيف يفكر الفرد «لأن عندما يفكر الإنسان، كما هو الحال عندما يحلم، فالفرد وحده باستطاعته معرفة ما يدور بذهنه، فالتفكير هو نوع من الملجأ الذي لا يطلع عليه الآخرون وبحيث كل واحد يحميه من أي اعتداء أو "قراءة"» (Pierre OLERON. 1972, P.8) لكن هذا لا يعني أن ما بداخلنا يبقى غامضا بل سيظهر بشكل أو بآخر في شكل أفعال وسلوكات.

كما أن ذات المعلم ما هي في الواقع إلا مرجعية للمتعلمين: فمواقفه واتجاهاته تنتج سلوكا معيناً لذا المتعلمين. وهذا يجعلنا نقول على المعلم أن يكون: متيقناً، مهياً، دقيقاً، صارماً، هادئاً، وديناميكياً، في تواصله مع ذات مُتعلِّمة.

إن إدارة القسم التي هي عملية مركبة ومعقدة وذات بعد حدسي تتطلب من المعلم رجوعاً إلى الذات ومراجعتها. كي نتعلم جيداً يجب علينا أن نعرف كيف نستمع، ندير نقاش، وأن تكون لدينا سمات شخصية مميزة مثلاً... وهي في الأساس كفاءات لها علاقة مباشرة بمهنة التدريس.

"معرفة" تسيير القسم تعد كفاءة مهنية تكتسب واكتسابها ليس بالممارسة فقط بل تتطلب في آن واحد عمل ونظرة إلى الذات العاملة أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالشخصية المهنية والتي هي مختلف مكونات الشخصية في الوسط المهني. هذه الشخصية الخاصة التي تتكون عبر الاحتكاك بالذوات الأخرى وروح القوانين و"الشخصية المُتعلِّمة" (التلميذ) عليها أن تعيش في لحظات القسم "تماماً" نفسها وليس اصطداماً نفسياً لأن هذه الذات العاملة لولا هذه "الاحتكاكات النفسية" ما كانت لتتكون وتتم وتحدد معالمها. كما أنه من دون الذات المتعلمة لا يمكن أن يكون هناك تطور للشخصية المهنية. وهذا يتطلب إعادة النظر وبصورة معمقة في مهمة الأستاذ (la mission d'enseignant).

إذ لا يخفى أن أي تفاعل إلا وينعكس على مختلف المجالات التي تعمل فيها هذه الذات وتتفاعل اجتماعياً ومهنياً وغيرها. وأن أي سخط على الذات أو رفض لها إلا وينعكس سلباً على المجالات التي تتفاعل فيها هذه الذوات. كما بات معلوماً أن نوع المشاعر التي يحملها المدرس عن ذاته وعن الذوات الأخرى -سلبية أو إيجابية كانت- إلا وتنعكس على ذوات المتدربين، وبالتالي على باقي أنشطتهم وتفاعلاتهم المختلفة، أي إدارة القسم.

ذات تبقى في إطار التكوين علماً أننا مثلاً نلاحظ ولو بدرجات متفاوتة نوعاً من القلق أو عدم الارتياح في إدارة القسم عند الأستاذ المبتدئ فإن هذا القلق المهني لا يخلو من حياة الأستاذ ذو الخبرة الطويلة علماً أن هناك عوامل كثيرة تجعل من إدارة القسم مهمة صعبة.

كما أن الاتصال الفعال بمختلف أشكاله مرئياً أو مسموعاً كالقدرة على قراءة الإشارات غير اللفظية ومختلف التعبيرات الجسدية في غرفة الدراسة يعد أهم شبكة العمل التي يمكن من خلالها جمع المعلومات من أجل اتخاذ القرار المناسب، فهو على العموم عملية ضرورية لتطوير كل ذات متعلمة أو عاملة.

بهذا نبحت عن استراتيجية لتنمية مهارة الإدارة الصفية فالمعلم بصفة خاصة أثناء الإدارة الصفية يستدعي قدرات ومعارف ومعلومات أي مهارات ومختلف الصور الحسية والدلالية والعقلية المرتبطة بالصف فكلما امتلك المعلم رصيذاً وفيراً من الصور كان أقدر على الفهم والتحكم في القسم.

كما أن إدارة القسم تعد كفاءة يعتمد عليها في تقييم الذات أو الآخرين سواء عند الأستاذ المبتدئ أو ذلك الذي له تجربة مهنية كبيرة.

خاتمة: بغير القدرة على إدارة الصف يفقد المعلم جانباً مهماً من جوانب التعلم لأن هناك ترابطاً وثيقاً بين قدرة المعلم على إدارة الصف وما يتمتع به من سمات ومزايا شخصية. فالتعلم الحقيقي الفعال لا يمكن أن يتم في صف تسوده الفوضى والاضطراب أو تسيطر عليه أجواء القلق والتوتر، أو تنتشر بين تلاميذه حالة من الاسترخاء والفتور وعدم الاكتراث بما يجري.

كما أن إدارة الصف لا تقتصر على تطبيق القوانين وضبط النظام في الصف، لكنها تتسع لتشمل النشاطات وكل الممارسات التي يهيئها المعلم بخلق جو اجتماعي تعاوني ديمقراطي داخل الصف، أي كل ما يؤدي إلى تعلم فعال ثم المحافظة على استمرارية هذا الجو الملائم لحدوث النمو والتعلم.

فالتفاعلات الصفية بين الذات المتعلمة والذات العاملة تعد العنصر الأساسي في كل تعلم.

فالتعلم الفعال يحتاج إلى أجواء منظمة هادئة وطبيعية، كما يحتاج إلى جدية واهتمام وحسن تفاعل بين أطراف الموقف التعليمي، ومن المهم أن يتعرف المعلم إلى

كل الأنماط السلوكية، التي من شأنها أن تحقق هذه الأجواء الصحية في الصف، ويتجنب كل ما من شأنه أن يعيق النمو ويخزل التعلم. لتبقى إدارة القسم عدة أشكال والعامل المهم في ذلك هو نوع الاستاذ أي الشخصية وكل انسان له شخصيته غي أن في عالم التعليم من المهم أن نتعلم كمعلمين كي نتطور ونحسن من طريقة إدارتنا للقسم.

المراجع

- 1- أبو الحسن علي القابسي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، دراسة وتحقيق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ط.1، 1986.
- 2- جمال سليمان، أصول التدريس، منشورات جامعة دمشق، 1430-1431 هـ، 2008-2009 م.

3- Archambault, J. et R. Chouinard : Vers une gestion éducative de la classe, 2^e édit, 2003, Gaëtan Morin.

4- Michel Marchand Jacinthe Tardif : La gestion de classe en milieu universitaire, voir <http://creativecommons.org/licenses/by-nc-sa/3.0>

5 - Nault, T. et F. Lacourse: La gestion de classe : une compétence à développer. Anjou : Les Éditions CEC. 2008 .

6- Patrice PELPEL, Guide de la fonction tutorale, Ed. Les éditions d'organisation, 1996.

7- Pierre OLERON, Les activités intellectuelles, Ed. P.U.F. 1972.